

## عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ٢٣: حُجَّةُ كَانُظِ الْأَخْلَاقِيَّةِ

أ.ر. سي. سرول

في جُزءٍ سَابِقٍ مِنْ دِرَاسَتِنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ، ذَكَرْتُ التَّأثيرَ الشَّدِيدَ لِنَقْدِ إيمَانِويلِ كَانُظِ لِلحُجَجِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ لوجودِ اللَّهِ. وَهَذَا العَمَلُ الَّذِي كَانَ نُقْطَةً تَحْوِيلًا جَاءَ فِي كِتَابِهِ بِعُنْوَانِ "نَقْدُ المَنْطِقِ البَحْثِ". لَكِنْ مَعَ أَنَّ كَانُظَ كَانَ لَا أَدْرِيًا، مِنْ جِهَةِ إمكَانِيَّةِ إِبْتِاتِ وجودِ اللَّهِ بِالفِكرِ النَّظَرِيِّ، كَانَ هُوَ نَفْسُهُ مُؤْمِنًا بِوجودِ اللَّهِ. فَقَدْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، لَكِنَّهُ فَقَطْ رَأَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ إِبْتِاتُ وجودِ اللَّهِ. وَقَدْ أَلَفَ كِتَابًا آخَرَ بِعُنْوَانِ "نَقْدُ المَنْطِقِ العَمَلِيِّ"، تَطَرَّقَ فِيهِ إِلَى مَوْضُوعِ اللَّهِ، لَيْسَ مِنْ مَنظُورِ نَظَرِيٍّ، بَلْ انطِلَاقًا مِنْ اعْتِبَارَاتٍ عَمَلِيَّةٍ. وَأَحِبُّ وَصَفَ كَانُظَ بِأَنَّهُ، مِنْ نَاحِيَةِ طَرَدِ اللَّهِ بِوَقَاحَةِ مِنَ البَابِ الأَمَامِيِّ لِلْمَنْزِلِ، ثُمَّ رَكَضَ إِلَى بَابِ المَطْبَخِ، وَأَدْخَلَهُ مِنَ البَابِ الخَلْفِيِّ. فَهَكَذَا فَعَلَ، لِأَنَّهُ فِي كِتَابِ "المَنْطِقِ العَمَلِيِّ"، قَدَّمَ حُجَّتَهُ الْأَخْلَاقِيَّةَ الشَّهِيرَةَ الْمُؤَيَّدَةَ لوجودِ اللَّهِ، الَّتِي سَنَدْرُسُهَا بَعْدَ قَلِيلٍ. لَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، أَوْدُ صَرَفَ بِضِعْ لِحَظَاتٍ فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الأَفْكارِ الَّتِي تَرُدُّ فِي العَهْدِ الجَدِيدِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالحُجَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

حِينَ كَتَبَ بُولُسُ إِلَى أَهْلِ رُومِيَّةَ، فِي الأَصْحَاحِ الأَوَّلِ مِنْ رِيسَالَتِهِ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَنَاوَلْتَاهُ فِي تَصْرِيحِهِ فِي جُزءٍ سَابِقٍ مِنَ الأَصْحَاحِ بِأَنَّ أُمُورَ اللَّهِ غَيْرَ المَنْظُورَةَ مُدْرَكَةٌ بِالمَصْنُوعَاتِ. لَكِنْ فِي جُزءٍ لَاحِقٍ مِنَ الأَصْحَاحِ الأَوَّلِ، فِي الآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالعِشْرِينَ، حَيْثُ كَانَ بُولُسُ بِصَدَدٍ تَوَجِيهِ الإِتِّهَامَاتِ إِلَى كُلِّ الجِنْسِ البَشَرِيِّ فِي حَالَتِهِ السَّاقِطَةِ وَالْفَاسِدَةِ، قَالَ عَنِ البَشَرِ، فِي الآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالعِشْرِينَ: "وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْفِئُوا اللَّهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسَلَمَهُمُ اللَّهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ، لِيَفْعَلُوا مَا لَا يَلِيقُ، مَمْلُوءِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزَنَى وَشَرٍّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلًا وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، نَمَامِينَ مُفْتَرِينَ مُبْغِضِينَ لِلَّهِ ثَالِبِينَ مُتَعَطِّينَ مُدَّعِينَ مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا غَيْرَ طَائِعِينَ لِلوَالِدِينَ، بِلا فَهْمٍ وَلَا عَهْدٍ وَلَا حُؤُولٍ وَلَا رِضَى وَلَا رَحْمَةٍ". هَذِهِ القَائِمَةُ لَيْسَتْ شَامِلَةً، لَكِنَّهَا قَدْ تَبَدُّو كَذَلِكَ بِالثَّمَعِ فِيهَا، لِأَنَّهَا تَسْرُدُ كُلَّ الطَّرِيقِ الَّتِي يُؤْذِي بِهَا البَشَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِسُلُوكِهِمْ غَيْرِ الأَخْلَاقِيِّ.

لَكِنْ يَكُنُّ بَيْتُ القَصِيدِ فِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ: "الَّذِينَ" - أَيِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الأُمُورَ - "إِذْ عَرَفُوا حُكْمَ اللَّهِ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هَذِهِ يَسْتَوْجِبُونَ المَوْتَ، لَا يَفْعَلُونَهَا فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا يُسْرُونَ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ!" يَقُولُ الرَّسُولُ هُنَا بِوَضُوحٍ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَنَ عَنِ طَبِيعَتِهِ المُقَدَّسَةِ لِكُلِّ المَخْلُوقَاتِ، وَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ بِرِ اللَّهِ، وَمَا يُطَالِبُنَا بِهِ هَذَا البُرْمُنُ مِنْ جِهَةِ سُلُوكِنَا. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، قَالَ بُولُسُ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا يَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالخَطَأِ. فَإِنَّا نَعْلَمُ السُّلُوكَ الجِنْسِيَّ الصَّحِيحَ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ أَلَّا نَسْرِقَ أَحَدًا، أَوْ نَقْتُلَ أَحَدًا، أَوْ نَكُونَ خُبَثَاءَ، أَوْ طَمَاعِينَ، أَوْ مُبْغِضِينَ، وَسَائِرَ الأُمُورِ الأُخْرَى المَدْكُورَةَ هُنَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ شَرٌّ، وَأَنَّهَا خَاطِئَةٌ. ثُمَّ قَالَ إِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِنَا الوَاضِحَةِ

بِذَلِكَ، لِأَنَّنا لَا نُرِيدُ أَنْ نُبْعِي اللَّهَ فِي عُقُولِنَا، أَوْ فِي فِكْرِنَا، لَا نَكْتَفِي بِالسُّلُوكِ الشَّرِيرِ، وَلَا نَكْتَفِي بِالْمُصَادَقَةِ عَلَيْهِ - مَعَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَدِينُنَا، وَأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَسْتَوْجِبُ دِينُونَتَهُ - لَكِنَّا نَدْعَمُ الْآخَرِينَ، وَنُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْمُشَارَكَةِ فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ. اخْتَرْنَا آيَةَ خَطِيئَةٍ، وَسَتَجِدُ أَنَا سَا يُدَاعُونَ بِشِدَّةٍ عَن تَقَبُّلِهَا فِي مُجْتَمَعٍ مُتَحَضِّرٍ وَعَادِلٍ.

ثُمَّ فِي الْأَصْحَاحِ الثَّانِي، تَابَعَ الرَّسُولُ قَائِلًا، فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ: "لَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ التَّامُوسِ فَبِدُونِ التَّامُوسِ يَهْلِكُ. وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي التَّامُوسِ فَبِالتَّامُوسِ يُدَانَ". ثُمَّ قَالَ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ: "لَأَنَّهُ الْأَمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ التَّامُوسُ" - أَي لَيْسَ عِنْدَهُمُ نَامُوسُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ - "مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي التَّامُوسِ، فَهَوْلَاءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ التَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لِأَنفُسِهِمْ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ التَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا صَمِيرُهُمْ". يَقُولُ بُولُسُ هُنَا إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَقَطْ يُعْطِي التَّامُوسَ لِإِسْرَائِيلَ فِي الْوَصَايَا الْعَشْرِ وَغَيْرِهَا، لَكِنَّهُ يَكْتُبُ نَامُوسَهُ فِي قُلُوبِ جَمِيعِ الْبَشَرِ. وَالْبُرْهَانُ عَلَى وُجُودِ هَذَا التَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِ الْبَشَرِ هُوَ ذَلِكَ الْجِهَازُ الَّذِي نُسَمِّيهِ "الصَّمِير". فَالصَّمِيرُ جُزْءٌ مِّنْ تَكْوِينِ كُلِّ إِنْسَانٍ. نَعْلَمُ أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلصَّمَائِرِ أَنْ تَفْسُدَ، أَوْ تُوسَمَ، أَوْ تَتَقَسَّى، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنِ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ مَعْدُومَ الصَّمِيرِ تَمَامًا، سُنُسَمِيهِ مُضْطَرِبًا عَقْلِيًّا، أَوْ مُعْتَلًّا اجْتِمَاعِيًّا، وَهُوَ شَخْصٌ قَادِرٌ عَلَى إِرْتِكَابِ سُرُورٍ مُّؤْذِيَةٍ، دُونَ أَدْنَى شُعُورٍ بِالذَّنْبِ. وَنَعْتَبِرُ ذَلِكَ تَشَوُّهَا فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ نَفْسِهَا.

مُجَدِّدًا، يَقُولُ الرَّسُولُ، فِي الْأَصْحَاحِينَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، إِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ عَبْرَ غَرَسِ نَامُوسِهِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي عَقْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ.

أَعْلَمُ أَنَّ الْإِعْتِرَاضَ أَوْ الرَّدَّ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمُجْتَمَعُ الْإِلْحَادِيُّ هُوَ أَنَّ صَمِيرَنَا لَيْسَ سِوَى نِتَاجِ مُحَرَّمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ - كَتَأْثِيرِ الْمَلِكَةِ فَيْكْتُورِيَا، وَالْبُيُورِيَتَانِيَّيْنِ الَّذِينَ عَاشُوا فِي نِيُو إنْجِلَانْد، وَغَيْرِهِمْ، الَّذِينَ غَرَسُوا تِلْكَ الْمُحَرَّمَاتِ فِي ثِقَافِنَا. حَاوَلْ فُرُودٌ أَنْ يُثَبِّتَ فِي كِتَابَاتِهِ، مِثْلَ "The Future of an Illusion"، مِثْلًا، وَ"Civilization and its Discontents"، بِأَنَّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَفْرِضُهَا عَلَيْنَا الثَّقَافَةُ، وَالْإِعَاقَاتُ النَّفْسِيَّةُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ؛ وَأَنَّ التَّعْبِيرَ الْحَقِيقِيَّ وَالْحُرَّ عَن بَشَرِيَّتِنَا يَتَجَلَّى فِي سُلُوكِنَا الْجِنْسِيِّ بِلَا كَابِج.

لَكِنَّا جَمِيعًا أَحْكَمُ مِنْ أَنْ نَقْبَلَ بِذَلِكَ. فَالصَّمِيرُ بِبَسَاطَةٍ لَنْ يَتَلَاشَى. يُمَكِّنُ الْقَوْلَ إِنَّهُ فِي مُجْتَمَعَاتٍ مُّخْتَلِفَةٍ، تُحْسَبُ أُمُورٌ مُّخْتَلِفَةٌ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ. فَبَعْضُ الْمُجْتَمَعَاتِ تُحَرِّمُ شُرْبَ الْخُمُورِ، فِيمَا تَشْرَبُ مُجْتَمَعَاتٌ أُخْرَى الْخَمْرَ دُونَ شُعُورٍ بِالذَّنْبِ، وَهَكَذَا. نَعْلَمُ بِوُجُودِ تِلْكَ الْإِخْتِلَافَاتِ مِنْ زَمَنِ إِلَى آخَرَ. لَكِنِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَجِدَ أَيَّ مُجْتَمَعٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ - عَلَى عَكْسِ رَأْيِ مَارْجَرِيْتِ مِيد - بِلَا نِظَامٍ أَخْلَاقِيٍّ مِنْ نَوْعِ مَا، لِأَنَّ النِّظَامَ الْأَخْلَاقِيَّ ضَرُورِيًّا لِلتَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَلِلْحِفَاطِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ وَالْحَضَارَةِ.

يُدْعَى مُجْتَمَعُنَا الْيَوْمَ بِالْمُجْتَمَعِ "مَا بَعْدَ الْمَسِيحِيِّ"، وَبِالْمُجْتَمَعِ "الْوَثْنِيِّ الْحَدِيثِ". وَأُظُنُّ أَنَّ الْوَصْفَ الْأَنْسَبَ لِلْمُجْتَمَعِ الْأَمِيرِكِيِّ الْيَوْمَ هُوَ الْمُجْتَمَعُ "الْبَرَبْرِيُّ الْحَدِيثِ". فَمَعَ تَفْشِي النَّسَبِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، عَلَى الْأَقْلَ لَدَى خَمْسِينَ بِالْمِائَةِ مِنَ الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا يَفْعَلُونَهُ، صَارَ مُجْتَمَعًا عَدِيمَ الْأَخْلَاقِ وَبَرَبْرِيًّا. فَقَدْ أَنْشَأْنَا بَرَابِرَةً فِي مُجْتَمَعِ الْيَوْمِ. هَذِهِ هِيَ الثَّورَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ الْمُنْدَلِعَةُ فِي هَذِهِ الدَّوَلَةِ. لَكِنَّ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ، لَا يُمَكِّنُ إِحْمَادُ الصَّمِيرِ تَمَامًا. وَهُنَا بَرَزَتْ حُجَّةٌ كَانَتْ الْعَمَلِيَّةُ وَالْحُجَّةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ إِلَى السَّطْحِ.

قَالَ كَانِظٌ إِنَّهَا لَظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ أَنْ يَكُونَ لَدَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي الْعَالَمِ حِسُّ الْوَاجِبِ، أَيْ مَا نُسَمِّيهِ بِبَسَاطَةِ بِالْحِسِّ الدَّاخِلِيِّ وَالْفِطْرِيِّ بِالصَّوَابِ وَالْحُظْأِ. وَوَصَفَ كَانِظٌ حِسُّ الْوَاجِبِ هَذَا بِعِبَارَةِ "الضَّرُورَةُ الْحْتَمِيَّةُ". وَتُمَثِّلُ الضَّرُورَةُ الْحْتَمِيَّةُ وَصِيَّةً مُطْلَقَةً، دُونَ نِسَبِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ. لَكِنَّ يَقُولُ كَانِظٌ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي الْعَالَمِ لَدَيْهِ حِسُّ الْوَاجِبِ الَّذِي يُطَالِبُهُ أَوْ يُلْزِمُهُ بِالسُّلُوكِ بِطَرِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ. يُمَكِّنُنَا بِذَلِكَ كُلِّ مَا يُوَسِّعُنَا لِمَحْوِهِ، أَوْ إِنْكَارِهِ، أَوْ الْهَرُوبِ مِنْهُ، لَكِنَّ يَسْتَحِيلُ التَّخَلُّصَ مِنْهُ. يُشْبِهُ ذَلِكَ اللَّيْدِي مَا كَبِثَ، الَّتِي بَعْدَ ارْتِكَابِهَا جَرِيمَةَ الْقَتْلِ، حَاوَلَتْ كَشْطَ يَدَيْهَا الْمُطْلَخَتَيْنِ بِالِدَّمَاءِ بِالصَّابُونِ، فَلَمْ تَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنَ الدَّمَاءِ، فَصَرَخَتْ "أَيْتَهَا اللَّطِخَةُ اللَّعِينَةُ!" لَكِنَّ مُحَاوَلَاتِهَا كَانَتْ غَيْرَ مُجْدِيَّةٍ. فَأَكْبَرُ مُشْكَلَةٌ يُعَانِي مِنْهَا الْبَشَرُ وَيَعْجِزُونَ عَنْ حَلِّهَا هِيَ الشُّعُورُ بِالدُّنْبِ.

أَقُولُ ذَلِكَ عَادَةً لِلنَّاسِ حِينَ أَتَحَدَّثُ عَنِ الدِّينِ، وَاللَّاهُوتِ، وَالِدَّفَاعِيَّاتِ. فَبَعْدَ انْتِهَائِنَا مِنْ دِرَاسَةِ الْحُجَجِ الْفَلَسَفِيَّةِ، يَقِفُ أَحَدُهُمْ فِي الْوَسْطِ وَيُخْبِرُنِي بِأَنَّهُ مُلْحِدٌ، فَأَقَاطِعُهُ قَائِلًا: "أَخْبِرْنِي، كَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَ شُعُورِكَ بِالدُّنْبِ؟" لَمْ يَحْدُثْ حَتَّى الْآنَ أَنْ نَظَرَ أَحَدٌ فِي عَيْنِي قَائِلًا: "لَيْسَ لَدَيَّ أَيُّ شُعُورٍ بِالدُّنْبِ"، لِأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ جَيِّدًا أَنِّي سَأَعْلَمُ أَنَّهُمْ غَيْرُ صَادِقِينَ. وَفَجْأَةً، يَتَّخِذُ الْحَدِيثَ مِنْهُ آخَرَ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ يُعَانُونَ مُشْكَلَةَ الشُّعُورِ بِالدُّنْبِ الَّتِي لَمْ تُحَلَّ بَعْدُ.

يَقُولُ كَانِظٌ إِنَّ الشُّعُورَ بِالدُّنْبِ نَاتِجٌ عَنِ إِخْفَاقِنَا فِي تَأْدِيَةِ وَاجِبِنَا، وَفِي فِعْلِ مَا نَحْنُ مُلْزَمُونَ أَخْلَاقِيًّا بِفِعْلِهِ. عِنْدَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ حُجَّةِ كَانِظِ، اتَّبَعَ نَهْجًا وَصَفَهُ بِالتَّسَامِي، وَكَانَ أَسَاسِيًّا لِمَنْهَجِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِرُمَّتِهَا. فَإِنَّ نَقْدَهُ، بَلْ وَكِتَابَ "نَقْدُ الْمَنْطِقِ الْبَحْثِ"، وَنَظَرِيَّتَهُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى هَذِهِ الْمَنْهَجِيَّةِ الْمُتَّسَامِيَّةِ. بِتَبَعِيٍّ آخَرَ، حِينَ تَطَّرَقَ إِلَى مَسْأَلَةِ الْمَعْرِفَةِ، لَمْ يَقُلْ: "هَكَذَا تَحْدُثُ الْمَعْرِفَةُ؛ وَلَمْ يَبْدَأْ بِالْقَوْلِ بِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ مُمَكِّنَةٌ، بَلْ بَدَأَ بِطَرْحِ السُّؤَالِ التَّالِي: "إِذَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ مُمَكِّنَةً، فَمَا الَّذِي يُلْزِمُ وُجُودَهُ؟ وَمَا الْعُنَاصِرُ الضَّرُورِيُّ لِتَكُونِ الْمَعْرِفَةُ مُمَكِّنَةً؟" ثُمَّ بَنَى فَلَسَفَتَهُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ.

بِتَبَعِيٍّ آخَرَ، سَمَا كَانِظٌ فَوْقَ الْمُسْكَلَةِ، وَارْتَفَعَ فَوْقَهَا قَائِلًا: "لَا أَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ مُمَكِّنَةً، لَكِنَّ إِذَا كَانَتْ مُمَكِّنَةً، فَمَا الَّذِي يُلْزِمُ وُجُودَهُ؟" هَذَا هُوَ النَّهْجُ الَّذِي اتَّبَعَهُ، وَهُوَ نَهْجٌ مُبْتَكَّرٌ لِحُلِّ الْمُسْكَلَاتِ فَلَسَفِيًّا. لَكِنَّ بِأَيِّ حَالٍ،

حِينَ تَطَّرَقَ إِلَى الْحُجَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ عَنِ اللَّهِ، طَرَحَ السُّؤَالَ التَّالِي: "إِنَّهَا لِحَقِيقَةٌ مُسَلَّمٌ بِهَا أَنَّ لَدَيْنَا هَذَا الْحِسَّ الْعَامَّ بِالْوَاجِبِ. هَذَا الْحِسُّ الْعَامُّ بِالْوَاجِبِ قَدْ يَكُونُ خَدَلًا فِي تَكْوِينِ الْبَشَرِ. فِيهِ التَّهَائِيَّةُ، يَقُولُ الْعَدَمِيُّونَ - مِثْلُ نِيْتَشْهِ وَغَيْرِهِ - إِنَّ هَذَا الْحِسَّ، هَذَا الْحِسَّ الْأَخْلَاقِيَّ، لَيْسَ لَهُ مَعْنَى أَوْ هَدَفٌ، وَيَجْدُرُ بِنَا التَّخَلُّصُ مِنْهُ لِأَنَّهُ عَدِيمُ الْأَهْمِيَّةِ.

لَمْ يَتَّبِعْ كَانِظَ هَذَا الْأَسْلُوبِ، لَكِنَّهُ قَالَ: "كَيْ يَكُونَ لِهَذَا الْحِسِّ مَعْنَى - لَا أَعْلَمُ إِنْ كَانَ لَهُ مَعْنَى أَمْ لَا، وَلَا أَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ أَنَّ لَهُ مَعْنَى، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَهُ مَعْنَى - فَمَا الَّذِي يَلْزَمُ وُجُودَهُ؟" بِتَغْيِيرِ آخَرَ، مَا اللَّازِمُ كَيْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنَى لِلْأَخْلَاقِ وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ السَّلِيمَةِ، الَّتِي تَفْرِضُ عَلَيْنَا وَاجِبَاتٍ؟ وَطَرَحَ هَذَا السُّؤَالَ لِسَبَبٍ عَمَلِيٍّ، وَهُوَ إِدْرَاكُهُ أَنَّهُ بَدُونِ مِقْيَاسٍ مُطْلَقٍ لِلسُّلُوكِ، يَصِيرُ وُجُودُ مُجْتَمَعٍ وَحَضَارَةٍ، فِي التَّهَائِيَّةِ، مُسْتَحِيلًا. فَالْقَانُونُ السَّائِدُ سَيَكُونُ هُوَ "الْبَقَاءُ لِلْأَقْوَى". وَسَيَنْتَهِي بِنَا الْحُلَّ إِلَى شَرِيعَةِ الْعَابِ، مِمَّا سَيَقْضِي لَا مَحَالَةَ عَلَى الْحَضَارَةِ. وَهَذَا مَا أَحْشَى أَنَّنَا صِرْنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِلَى حَدِّ مَا.

لِهَذَا قَالَ دُوسْتُوبِيسْكِ إِنَّهُ إِذَا لَمْ يُوْجَدْ إِلَهُ، وَإِذَا لَمْ يُوْجَدْ أَسَاسٌ مُطْلَقٌ لِلصَّوَابِ، يَصِيرُ كُلُّ شَيْءٍ مُبَاحًا، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُوْجَدْ أَسَاسٌ مُطْلَقٌ لِلصَّوَابِ، يَتَحَوَّلُ الْأَمْرُ فِي التَّهَائِيَّةِ إِلَى صِرَاعَاتٍ تَفْضِيلِيَّةٍ، بَيْنَ مَا أَفْضَلُهُ أَنَا وَمَا تَفْضَلُهُ أَنْتَ. وَسَيَفْعَلُ الْجَمِيعُ مَا يَرُونَهُ صَائِبًا، مِمَّا سَيُولَدُ نِزَاعًا وَحُرُوبًا بَيْنَ طَبَقَاتِ الْبَشَرِ، أَيْ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَالزُّوْجَاتِ، لِأَنَّ لَيْسَ لِلْقَوَانِينِ أَيُّ أَسَاسٍ. كَانَ كَانِظَ عَلَى وَعْهِ شَدِيدٍ بِذَلِكَ، وَبِأَنَّ مَا عَلَى الْمِحْكَ هُنَا هُوَ الْحَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَلَيْسَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ. فَطَرَحَ السُّؤَالَ التَّالِي: "مَا الَّذِي يَلْزَمُ وُجُودَهُ لِيَكُونَ لِلضَّرُورَةِ الْحْتِمِيَّةِ مَعْنَى؟" فَقَالَ: "أَوَّلُ مَا يَلْزَمُ لِيَكُونَ لِأَيَّةِ أَخْلَاقِيَّاتٍ مَعْنَى هُوَ الْعَدَالَةُ. فَإِذَا كَانَتْ الْحَرِيمَةُ تَفِيدُ، لَمَّا وَجِدَ سَبَبٌ وَجِيهٌ لِلْفَضِيلَةِ، أَوْ سَبَبٌ وَجِيهٌ لِعَدَمِ الْأَتَانِيَّةِ. إِذَنْ، لَا بَدٌّ مِنْ وُجُودِ عَدَالَةٍ، حَيْثُ يُكَافَأُ السُّلُوكُ الصَّائِبُ، وَيُعَاقَبُ السُّلُوكُ الخَاطِئُ". وَقَالَ: "وَمَا اللَّازِمُ لِتَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ؟" أَجَابَ: "أَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ يُوْجَدْ كَيْ تَتَحَقَّقَ الْعَدَالَةُ هُوَ وُجُودُ حَيَاةٍ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ، لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ لَا يُوْرَعُ الْعَدَالَةَ بِشَكْلِ كَامِلٍ. فَثَمَّةُ أَرْبَاءِ يَمُوتُونَ عَلَى يَدِ مُذْنِبِينَ".

طَرَحَ أَحَدُ قَدِيسِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ السُّؤَالَ التَّالِي: "لِمَ يَزْدَهَرُ الشَّرِيرُ وَيَتَأَلَّمُ الصَّادِقُ؟" لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْدُثَ ذَلِكَ إِلَّا فِي بِيئَةٍ لَا تُجْرَى فِيهَا الْعَدَالَةُ بِشَكْلِ كَامِلٍ. وَلِهَذَا قَالَ: "بِمَا أَنَّهُ لَا يُوْجَدْ عَدْلٌ مُطْلَقٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ، بَلْ فَقَطْ قَدْرٌ مِنَ الْعَدْلِ. فَنَحْنُ نَطْلُبُ الْعَدَالَةَ، وَلَدَيْنَا مُحَاكِمَةٌ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَا يَنْجَحُ دَائِمًا". وَلِذَا قَالَ: "يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ عَدْلٌ كَامِلٌ، وَلِذَا يَجِبُ أَنْ تُوْجَدَ حَيَاةٌ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ". يَنْبَغِي أَنْ نَحْيَا بَعْدَ الْقَبْرِ لِتَخْتِيرَ الْعَدْلَ الْكَامِلَ. لَكِنْ حَتَّى إِذَا نَجَوْنَا مِنَ الْقَبْرِ، رَبَّمَا تُعَانِي الْحَيَاةُ التَّالِيَةُ مِنْ كُلِّ النَّقَائِصِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ. إِذَنْ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْنَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، قَاضٍ يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ كَامِلًا أَخْلَاقِيًّا، أَوْ بَارًّا، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْقَاضِي الَّذِي سَيَحَاكِمُنَا بَارًّا تَمَامًا، فَهُوَ نَفْسُهُ قَدْ يَرْتَكِبُ ظُلْمًا، لِأَنَّهُ فَاسِدٌ، أَوْ مُرْتَدِّسٌ، أَوْ أَنَانِيٌّ، إِلَى آخِرِهِ. إِذَنْ، لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ

النَّامُ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حُكْمٌ سَلِيمٌ. وَلِيَكُونَ هُنَاكَ حُكْمٌ سَلِيمٌ، يَلْزَمُنَا قَاضٍ كَامِلٌ، فَوْقَ الشُّبُهَاتِ، وَبَعِيدٌ عَنِ الْفَسَادِ.

لَكِنْ لِنَفْتَرِضَ، مَثَلًا، أَنَّ هَذَا الْقَاضِيَ الْكَامِلَ مَوْجُودٌ، وَكَانَ مُسْتَقِيمًا أَخْلَاقِيًّا، لَكِنَّهُ بَدَّلَ كُلَّ مَا بُوْسِعَهُ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ، لَكِنْ لِلْأَسْفِ، كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ مَحْدُودَةً. وَفِي ضَوْءِ مَحْدُودِيَّةِ مَعْرِفَتِهِ، اِرْتَكَبَ الْأَخْطَاءَ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ كُلَّ الْحَقَائِقِ أَوْ كُلَّ ظُرُوفِ الْقَضَايَا الَّتِي تُرْفَعُ أَمَامَهُ. وَلِهَذَا يُخْطِئُ، لَيْسَ عَنِ فَسَادٍ، وَإِنَّمَا بِسَبَبِ مَحْدُودِيَّةِ مَعْرِفَتِهِ. إِذَنْ، إِذَا أَرَدْنَا إِقَامَةَ عَدْلٍ كَامِلٍ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي لَيْسَ فَقَطْ كَامِلًا أَخْلَاقِيًّا، بَلْ كُلِّي الْعِلْمِ أَيْضًا. فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ كُلَّ الْحَقَائِقِ، حَتَّى يَكُونَ الْحُكْمُ الَّذِي يُصْدِرُهُ بِلا خَطَأٍ أَوْ عَيْبٍ.

لِنَفْتَرِضَ أَنَّهُ تُوْجَدُ حَيَاةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحُكْمٌ آخِرٌ. وَهَذَا الْحُكْمُ الْأَخِيرُ يَتَوَلَّاهُ قَاضٍ بَارٌّ تَمَامًا، وَيَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ، هَلْ يَضْمَنُ ذَلِكَ إِقَامَةَ الْعَدْلِ؟ لَيْسَ بَعْدُ. يَجِبُ تَوَافُرُ عُنْصُرٍ آخَرَ لِضَمَانِ أَنْ يَسُودَ الْعَدْلُ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْقَاضِيَ الْكَامِلَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَالْكَامِلَ فِي دَوَائِعِهِ وَفَضَائِلِهِ، يَجِبُ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالْقُوَّةِ لِتَنْفِيذِ حُكْمِهِ. لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِلا قُوَّةٍ، أَوْ يَعُوقُهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَارِجِ عَنِ إِقَامَةِ الْعَدْلِ بِأَيِّ شَكْلٍ، فَلَا شَيْءَ يَضْمَنُ إِقَامَةَ الْعَدْلِ. إِذَنْ، فِي النَّهَائِيَّةِ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَاضِي كُلِّي الْقُدْرَةِ، أَيُّ أَقْوَى مِنْ آيَةِ قُوَّةٍ مُضَادَّةٍ قَدْ تَعَوَّقُ تَنْفِيذَهُ لِأَحْكَامِهِ.

وَهَكَذَا، تَحَدَّثَ كَانِظٌ بِطَرِيقَةٍ مُتَسَامِيَةٍ وَعَمَلِيَّةٍ قَائِلًا: "إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لِحِيسِ الْوَاجِبِ لَدَيْكَ أَهْمِيَّةٌ وَمَعْنَى، يَجِبُ أَنْ تُمَثَّلَ أَنْتَ أَهْمِيَّةً، وَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَحْيَا بَعْدَ الْقَبْرِ، وَأَنْ تُحَاكَمَ فِي النَّهَائِيَّةِ عَنِ كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ فِي حَيَاتِكَ - أَيُّ كُلِّ كَلِمَةٍ تَقَوَّهْتَ بِهَا، وَكُلِّ فِكْرَةٍ رَاوَدْتَكِ، وَكُلِّ عَمَلٍ قُئِمْتَ بِهِ، وَكُلِّ عَمَلٍ حَسَنٍ تَقَاعَسْتَ عَنْهُ. فَإِنَّكَ سَتُقَدِّمُ حِسَابًا، أَمَامَ قَاضٍ لَا يَضَعُ عُصَابَةً عَلَى عَيْنَيْهِ، وَلَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ أَوْ الْفَسَادَ، لَكِنَّهُ قُدُوسٌ وَصَالِحٌ وَبَارٌّ تَمَامًا. وَهُوَ يَعْرِفُكَ أَكْثَرَ كَثِيرًا مِمَّا تَعْرِفُ نَفْسَكَ. وَيَعْرِفُ كُلَّ مَا فَعَلْتَهُ وَقُلْتَهُ. وَهُوَ قَوِيٌّ كِفَايَةً لِتَنْفِيذِ حُكْمِهِ.

تَرُونَ إِذَنْ أَنَّ هَذَا الْفَيْلَسُوفَ الَّذِي دَحَضَ الْحُجَجَ التَّقْلِيدِيَّةَ الْمُؤَيَّدَةَ لَوْجُودِ اللَّهِ، تَوَجَّهَ إِلَى الْبَابِ الْخَلْفِيِّ، وَأَدْخَلَ مِنْهُ الْإِلَهَ الْمَسِيحِيَّ، أَيُّ إِلَهَ الْيَهُودِيَّةِ-الْمَسِيحِيَّةِ، عَلَى أَسَاسِ حُجَجِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، قَائِلًا إِنَّ الْأَخْلَاقِيَّاتِ، إِذَا كَانَتْ صَاحِبَةً، تَجْعَلُ الْإِعْتِرَافَ بِوُجُودِ اللَّهِ ضَرُورَةً عَمَلِيَّةً. وَلِذَلِكَ، اسْتَنْتَجَ كَانِظٌ مَا يَلِي: يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ كَمَا لَوْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَهٌ، فَلَا أَمَلٌ فِي وُجُودِ حَضَارَةٍ أَوْ مُجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ.

بِالطَّبْعِ، جَاءَ نُقَادُ كَانِظٍ - أَيُّ الْوُجُودِيَّوْنَ - بَعْدَهُ وَقَالُوا: "حَسَنًا، قَالَ كَانِظٌ ذَلِكَ فَقَطْ لِأَنَّ الْبَدَائِلَ الْأُخْرَى غَيْرُ جَدَّابَةٍ". وَقَالَ نِيْتِشِه: "لَا مَعْنَى لِلْحَيَاةِ وَلَا أَمَلٍ". لَكِنَّ مُعْظَمَ الَّذِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ يُحَاوِلُونَ التَّعْرِيجَ بَيْنَ

الْفِرْقَتَيْنِ. فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ اللَّهَ، لَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْأَخْلَاقَ. وَهُمْ لَا زَالُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ لِلْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ أَهْمِيَّةٌ وَمَعْنَى. لَكِنْ يَقُولُ كَانِظْ هُنَا إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُكَ الْحُصُولُ عَلَى كِلَا الْأَمْرَيْنِ مَعًا.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سِنُورُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَلَم".